

مقامات رسول الله في القرآن الكريم. الشهادة نموذجاً

تاريخ المقال ٢٩ / ٥ / ٢٠٢٣ م

نهى عباس علي آل فريد^١

د. عبد الهادي البغدادي^٢

خلاصة البحث:

إن إثبات الله سبحانه وتعالى لمقامات رسوله الكريم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن الكريم واضح لكل من يتأمل آياته الشريفة، فقد جاءت مفسرة لبعضها البعض، ولو لم يكن منها إلا آيات الشهادة لكفى، إلا أن تشويشاً طرأ على هذا المفهوم بمعناه الواسع، فأخذ في الانحسار حتى صار أول ما يتبادر للذهن -حين سماع كلمة الشهادة- الحرب والموت دفاعاً عن الدين والمقدسات، في حين أن هذا المعنى لم يرد في جميع آيات القرآن الكريم المتضمنة لهذه الكلمة بمختلف تصريفاتها، والتي أشار أغلبها لمعنى الشهادة على أعمال الخلق، وهي وظيفة أوكّلها الله لبعض مخلوقاته، إيقاعاً للحجة عليهم وتكريماً للشهداء من خلقه باختلاف درجات شهادتهم، وجعل أرفع تلك الدرجات درجة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ حين خصه بالشهادة على الشهداء كأحد مقامات الحقيقة المحمدية.

كذلك جعل لأهل بيت رسول الله عليهم السلام مرتبة الشهادة كأحد وظائفهم الباطنية التي يقررها القرآن الكريم في آيات صريحة؛ تعززها الروايات لإثبات مقومات الشهادة لهم.

¹ Nuha.fareed@gmail.com طالبة في جامعة المصطفى المفتوحة. التخصص علوم قرآن وتفسير.

² bagdady30377@yahoo.com أستاذ في جامعة المصطفى المفتوحة. دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن

وفي ظل تضارب التفاسير التي جاء بها المفسرون في مدرسة أهل السنة والجماعة حول آيات الشهادة، نجد تفاسيرنا الشيعية تتفق على حقائق يمكن الوقوف عليها بتأمل بسيط في الآيات المعنية وربط بعضها ببعض، لنجد أنها تعضد بعضها بعضاً، لتقف في وجه الشبهات التي تحاول تحجيم دور رسول الله وأهل بيته الطاهرين في الشهادة على أعمال الخلائق.

الكلمات المفتاحية: الشهادة، رسول الله، أهل البيت، أهل السنة، العصمة، علم الغيب، الأعراف، الرؤية.

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي من علينا بمحمد دون الأمم الماضية. اللهم فصل على محمد وآل محمد، كما نصب لأمرك نفسه، وعرض فيك للمكروه بدنه، وكاشف في الدعاء إليك حامته، وحارب في رضاك أسرته، وأذاب نفسه في تبليغ رسالتك، وأتعبها بالدعاء إلى ملتك، وشغلها بالنصح لأهل دعوتك، وهاجر إلى بلاد الغربه ومحل النأي عن موطن رحله وموضع رحله ومسقط رأسه ومأنس نفسه، أرادة منه لإعزاز دينك، واستنصاراً على أهل الكُفْرِ بِكَ.

اللهم إنا آمنا بمحمد ولم نره، فلا تحرمنا يوم القيامة رؤيته، وعرفنا في الجنان وجهه. اللهم بلغ روح محمد صلى الله عليه وآله عنا تحية كثيرة وسلاماً (من صلاة الإمام السجاد على رسول الله في الصحيفة السجادية).

في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تجتهد العقول وتتسابق الأقلام، كانت ولا زالت، إلا أنها رغم كل ما وصلت إليه فإنها لا تزال تائهة متعثرة في البدايات، ذاك أن مقام رسول الله أبعد من أن يبلغ منتهاه. الرسول يؤكد هذه الحقيقة بمخاطبته علياً، "يا علي، ما عرف الله إلا أنا وأنت، وما عرفني إلا الله وأنت، وما عرفك إلا الله وأنا". (الريشهري، ١٤٢٠ق، ج ٨، ص ١٨٥).

رغم هذه الحقيقة، فإننا حين نزوره أو أحداً من أهل بيته ونخاطبه بـ جئتكَ عارفاً بحقك، فإننا نعلم يقيناً أن هذه الحقيقة لا تتجاوز ما عرفنا الله نفسه بهم. من هنا، نفهم ما ورد في زيارة الإمام صاحب العصر والزمان: "السلام عليك سلام من عرفك بما عرّفك الله به". (المجلسي، ١٤٠٣ق، ج ٩٩، ص ١١٧).

إن معرفة رسول الله وبلوغ حقيقته النورانية يتطلب باطنا قادرا على استيعابها، ولا يحدث ذلك إلا بجهد جاد وطويل مع النفس.

وقد يتبادر لذهن أحدنا سؤال عن عدم كشف المعصومين لكامل حقيقة رسول الله لنا، وما كان ذلك عجزا منهم، بل عجز

قابلية العقل البشري في بساطته عن أن يستوعبها. لذلك، هو يحتاج أن يترقى في مراتب الكشف والشهود، بالتخفف من قيود

النفس وتهذيبها ليتحرر ويعرج لملكوت الحقيقة المحمدية.

وإن تهذيب النفس لا يتحقق دون معرفة الله المعرفة الحققة. ومن هنا، نفهم الدعاء الذي أوصى به الإمام الصادق عليه السلام

لزمان الغيبة، "اللهم عرفني نفسك، فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف رسولك. اللهم عرفني رسولك، فإنك إن لم تعرفني رسولك

لم أعرف حجتك. اللهم عرفني حجتك، فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني". (المجلسي، ١٤٠٣ق، ج ٥٣، ص ١٨٧).

إذن؛ معرفة رسول الله وأهل بيته لا تتحقق دون معرفة الله تعالى، إلا أننا في المقابل نقرأ في الزيارة الجامعة، "من أراد الله بدأ

بكم"، وهذا يعني أننا أمام تراتبية مختلفة تقول أننا بحاجة لنعرف رسول الله وأهل بيته صلوات الله وسلامه عليهم لنعرف الله

سبحانه وتعالى.

وهذا مما قد يحدث عند البعض تصورا بوجود تناقض. إلا أن هذا التصور مردود، لأن الرسول عليه السلام لم يكن ليتترك

مناسبة للتأكيد على مكانة أهل البيت عليهم السلام إلا وظيفها، ولو لم يكن إلا حديث الثقلين لكفاه دليلا.

لقد أراد الرسول صلى الله عليه وآله في وصيته أن يؤكد على أن الله سبحانه وتعالى وأهل البيت عليهم السلام هما قطبا المعرفة

والتوحيد، فالله هو الموحّد، ورسول الله صلى الله عليه وآله هو الموحّد، يأتي بعده أهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين.

الإمام الباقر يعبر عن هذه الحقيقة بقوله: "بنا عبد الله. عرف الله. وبنا وحد الله تبارك وتعالى"، كما ورد في الجزء الثاني من

مرآة العقول في شرح أخبار الرسول، للعلامة المجلسي؛ في الصفحة ١٢١، وبنا هنا لا تقتصر على الإنسان فقط، فرسول الله في

رواية يصف كونه واسطة الفيض لجميع الخلق من الله تعالى بإشارته لأثره في الملائكة بتعليمهم، حيث يقول في رواية طويلة عنه

وعن علي عليهما السلام: "فسبحنا وسبحت الملائكة، وهللنا فهللت الملائكة، وكبرنا فكبرت الملائكة". (المجلسي، ١٤٠٣ق،

ج ٢٦، ص ٣٤٥).

الرسول وعلي عليهما السلام هما ساسة الملائكة وواسطة علمهم، مع ملاحظة أن علم رسول الله صلى الله عليه وآله عصي عليهم. لذا، قال تعالى لآدم عليه السلام "يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ"، ولم يقل علمهم.

ورغم أن الشائع في الأذهان أن اسم آدم في القرآن يراد به أبو البشر، إلا أننا نقرأ في التفاسير العرفانية إشارة صريحة لكون لفظة آدم في القرآن الكريم قد يراد بها آدم الملك وهو أبو البشر، كما قد يقصد بها آدم الملكوت وهو رسول الله محمد صلى الله عليه وآله؛ انطلاقاً من كونه الصادر الأول في قوسي الصعود والنزول؛ الذي لم يكن بينه وبين الله واسطة يتعلم منه، فهو أول ما خلق الله تعالى في عالم الحقيقة والأرواح، وإذ ذاك؛ لا يستقيم أن يكون آدم أبو البشر واسطة للنبي محمد وهو أدنى مرتبة منه، فهو لم يبلغ مرتبة أولى العزم، حيث يصفه تعالى بقوله في الآية ١١٥ من سورة طه: (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً).

وقد ورد عن جابر بن عبد الله قال: "قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله: أول ما خلق الله تعالى ما هو؟ فقال: نور نبيك يا جابر، خلقه الله ثم خلق منه كل خير". (المجلسي، ١٤٠٣ق، ج ١٥، ص ٢٤).

في كتابه شرح فصوص الحكم؛ يشير القيصري لهذه الحقيقة بقوله أن أول موجود ظهر من الأجسام الإنسانية كان آدم وهو الأب الإنساني، قبل أن ينه على آدم عالم الجبروت والملكوت الذي هو محمد (ص)، وهو الخليفة أزلاً وأبداً تنبيهاً للمستكملين وإرشاداً للطالبيين. (القيصري، ١٤٣٢ق، ج ١، ص ٣٠٦).

ومن هنا، نفهم قوله صلى الله عليه وآله: "إنما بعثت فاتحاً وخاتماً". (السيوطي، ١٤٢٤ق، ج ٣، ص ٤٧٣).

على كل حال، لقد علم الله تعالى رسول الله صلى الله عليه وآله أسمائه وصفاته، ولأنه تعلم منه مباشرة، فقد تعلمها لدرجة أنه كان أفضل من ترجمها واقعاً، فكان الإنسان الكامل والمظهر الأتم لجميع الأسماء الإلهية في الأرض جملة واحدة، وهو المظهر للاسم الجامع (الله). أعطاه الله كل الصفات التي أعطاها لنفسه، بعد أن ختم مقامات القرب الإلهي حتى دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى من العلي الأعلى. ولذلك، أعطاه الله ما لم يعط أحد من العالمين، وخصه بمقامات تطاولت لها الأعين والرقاب، لو لم يكن من مقاماته إلا المقام المحمود لكفاه فخراً، وهو مقام الشفاعة في أعلى درجاتها.

لقد أرسل الله تعالى رسله، وفضل بعضهم على بعض. يقول عز من قائل في الآية ٢٥٣ من سورة البقرة: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)، ورغم هذا التفاضل بين الأنبياء إلا أنه سبحانه وتعالى جعل لهم وظائف عامة اشتركوا فيها أجمع، وخص بعضهم بوظائف خاصة، استعرضها القرآن جميعا فيما استعرض من الوظائف والمسؤوليات على عاتق أئمة الدين، بمن فيهم الأنبياء والمرسلون والأوصياء، ولعله أحيانا يشمل العلماء الربانيين التابعين لهم.

وتنقسم هذه الوظائف والمسؤوليات إلى قسمين، ظاهرة وباطنة، إلا أن الذهن حين يستعرض وظائفهم فإنه ينصرف للوظائف الظاهرية فقط. يقول تعالى في الآية ٧ من سورة الروم: (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ). لذا، يجدر التعرف على هذين التقسيمين.

أولا / الوظائف الظاهرية:

هي الوظائف التي يمكن الوقوف عليها بالحواس الظاهرة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

- ١- الهداية. يقول تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ). (سورة السجدة: آية ٢٤).
- ٢- إقامة العدل. يقول تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ). (سورة الحديد، آية ٢٥).
- ٣- تبليغ الدين. يقول تعالى: (فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ). (سورة التوبة: آية ١٢٢).

وليس موضوعنا في الوظائف الظاهرية، فهذا موضوع مستفيض الحديث فيه، بل في الوظائف الباطنية.

ثانيا / الوظائف الباطنية:

وهي مما لا ترى ولا تحس بالحواس الظاهرة، من قبيل الشفاعة التي تعد أحد أهم وظائف الأنبياء الباطنية، وهي ليست من اختصاصاتهم وحدهم فقط، فكثير من الخلق سيتشرفون بها يوم القيامة بدرجات، إلا أن أخص درجة لها هي من مقامات الرسول

التي يغبط عليها، وهي ما يشير له علماؤنا بالمقام المحمود؛ في قوله تعالى: (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا). (سورة الإسراء. آية ٧٩).

الجدير بالذكر هنا هو أن الشفاعة في أرقى درجاتها تحتاج لمقام خاص جدا وهو مقام الشهادة، يؤكد ذلك قوله تعالى: (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ). (سورة الزخرف، آية ٨٦).

هذا البحث يتناول مفهوم الشهادة على أعمال الخلائق؛ كمقدمة للشفاعة التي لا تبلغ تمام صورتها إلا بها، وسأثبت كأحد أهم مقامات رسول الله التي يقرها القرآن الكريم له، ثم لأهل بيته الطاهرين عليهم السلام، فهم الشهداء على الأعمال يوم الأعراف، وهم الأمة الوسط، كما سأستعرض أهم شبهات الرافضين لهذه الحقيقة قبل أن أرد عليها بآيات القرآن الكريم والثابت من روايات أهل البيت عليهم السلام.

أسئلة البحث:

السؤال الأساسي:

١- كيف تكون آيات القرآن مفسرة لبعضها البعض، بحيث نقف فيها على حقائق لا تحتاج إلا لقراءة متأملة، تتأكد أكثر إن عضدناها بالروايات المعتبرة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام؟

الأسئلة الفرعية:

- ١- ما هو المعنى الأكثر ورودا لمفهوم الشهادة في القرآن الكريم؟
- ٢- ما هي الحكمة الإلهية من تكليف بعض خلقه بالشهادة على أعمال بعضهم؟
- ٣- لماذا أعطى الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وآله أعلى مراتب الشهادة، وما هي تجلياتها؟
- ٤- ما هي موقعة أهل البيت عليهم السلام في هذا التجلي؟
- ٥- ما هي مستلزمات الشهادة على أعمال الخلائق؟ وكيف استعرضها القرآن الكريم؟

٦- ما المقصود برؤية الأعمال؟

٧- من هم الأمة الوسط؟

٨- من هم رجال الأعراف؟

٩- من هم المؤمنون في القرآن؟

أهداف البحث:

١- إثبات مقام الشهادة لرسول الله صلى الله عليه وآله.

٢- إثبات مقام الشهادة للأئمة المعصومين من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله.

٣- إيقاظ النفس بمراقبتها.

٤- تهذيب علاقتها مع الله تعالى ورسوله الكريم واهل بيته الطاهرين.

المبحث الأول: مفهوم الشهادة في القرآن الكريم:

الشهادة مصدر الفعل شهد يشهد.

والشهادة - كما ورد في معجم المعاني - أن يخبر أحدهم بما رأى، وهي أن يقرّ بما علم، كما في قال تعالى: (وَلَا تَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ

إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْإِثْمِينَ). سورة المائدة. آية ٦.

والشهادة مجموع ما يدرك بالحس، وهي البينة في القضاء، بمعنى أنها أقوال الشهود أمام جهة قضائية.

وعالم الشهادة، أي عالم الأكوان الظاهرة في مقابل عالم الغيب.

جاء في كتاب التحقيق في كلمات القرآن الكريم للمصطفوي؛ الجزء السادس، صفحة ١٥٥ أن الشهادة أصل يدل على حضور

وعلم وإعلام.

ويوصف من يقوم بفعل الشهادة بأنه شاهد وشهيد، فقد جاء في لسان العرب أن الشهيد هو الحاضر، وقوم شهود أي حضور، واستشهد أي قُتل شهيدا.

كما ويطلق مصطلح الشهيد على من مات من المسلمين في قتال الكفار. ويكاد هذا المعنى أن يكون الأشهر ورودا على الأذهان حين تُذكر الشهادة.

إلا أن مفهوم الشهادة يزخر بثراء في القرآن الكريم حيث تعددت مشتقاته حتى بلغت ١٥٩ تكرارا بمعانٍ مختلفة ومتعددة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

- (شهادة) ٢٠ مرة ليس فيها مرة واحدة تعني القتل في سبيل الله.
- (شهيد) جاءت ٣٥ مرة، ليس فيها مرة واحدة تعني من قتل في سبيل الله.
- (الشهداء) جاءت نحو ٢٠ مرة، وأيضا لا تختص بمن قتل في سبيل الله، بل تشمل من قتل في سبيل الله وغيرهم. كما قال تعالى في الآية ١٤٠ من سورة آل عمران: (وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ)، وقال تعالى في الآية ١٩ من سورة الحديد: (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ)، فهذه الأخيرة متعلقة بمن يقتلون في سبيل الله.
- حضور موقف ما أو حادثة بعينها، كما في قوله تعالى في الآية ١٣٣ من سورة البقرة: (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي).

إن هذه الآيات، وغيرها في القرآن الكريم؛ حين نستعرض مشتقات الشهادة فيها، نجد أن معانيها متعددة. فالشهادة مثلا، لم ترد في القرآن الكريم بمعنى شهادة الحرب أبدا، بل بالشهادة على أعمال الخلق يوم القيامة.

قال تعالى في سورة غافر، الآية ٥١: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ).

أقسام الشهادة:

الشهادة بحسب المنظور القرآني تنقسم إلى قسمين، شهادة ملكية، وشهادة ملكوتية.

أما الشهادة الملكية؛ فهي الشهادة الشكلية لعمل ما بعناصره الصورية الظاهرية، كشهادة الإنسان على ما يرى ويسمع.

وأما الشهادة الملكوتية؛ فهي الشهادة بحقيقة العمل، إذ أن لكل موجود عنصرين، عنصر شكلي، وعنصر واقعي. فعنصره

الشكلي يسمى بعالم الملك، وهو ما يشير له الحق تعالى بقوله في سورة الملك، الآية ١: (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)، وعنصره

الواقعي والحقيقي يسمى بعالم الملكوت، وهو ما نقرأه في قوله تعالى: (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ). (سورة يس، آية ٨٣).

والشهادة الملكوتية هي ما يهمننا في هذا البحث، فقد أوكّل الله سبحانه وتعالى لها بعض مخلوقاته ليشهدوا على أعمال البشر،

ليس عجزاً منه عن ذلك، فهو أشهد الشاهدين وأعلم العالمين، بل لإقامة الحجة على خلقه بأكثر من جهة؛ دفعا لإنكارهم، فضلاً

عن أن في تكليف الأشهاد بهذه الشهادة تكريماً لهم وتعزيزاً لمقامهم عنده سبحانه وتعالى.

قال عز من قائل: (وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ). (سورة الزمر، آية ٦٩).

نماذج من الشهادة الملكوتية:

١ - شهادة الأرض:

قال تعالى: (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ

أَوْحَى لَهَا*) (سورة الزلزلة. الآيات ١-٤).

٢ - شهادة الجوارح:

قال تعالى: (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ). (سورة يس، آية ٦٥).

وقال تعالى: (وَقَالُوا لِحُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ). (سورة فصلت، آية ٢١).

٣- شهادة الملائكة:

قال تعالى: (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ). (سورة ق: آية ١٨).

وقال تعالى: (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ). (سورة الانفطار: الآيتان ١١، ١٠).

٤- شهادة البشر:

وحتما ليس أي بشر، بل مجموعة مخصوصة، فلكل أمة شهيد. قال تعالى: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ

كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ). (سورة النحل. آية ٨٤)

ولأن الله سيبعث من كل أمة شهيدا، فلا أحق بالشهادة من نبيها، إلا أن القرآن الكريم في موضع آخر يبين أن الشهادة ليست

مقصورة على الأنبياء فقط، بل أن هناك شهداء من غير الأنبياء شرفهم الله بهذه المهمة، حين أكد في آياته على وقفة يوم يوضع

الكتاب؛ يقف فيها الأنبياء والشهداء ليشهدوا على الناس كي يقضي الله بينهم بالحق. يقول تعالى في الآية ٦٩ من سورة الزمر:

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ).

وحيث أن العطف يقتضي المغايرة في قوانين اللغة، فإن في العطف هنا دلالة على أن الشهداء ليسوا هم الأنبياء، وإلا لم

يعطفوا على الأنبياء أصلا. أما عن هويتهم فهذا بحث في محله لاحقا.

الجدير بالذكر هنا هو أن شهادة الأنبياء تكون على أقوامهم فقط، وهي محدودة بحياتهم، فما أن يموت النبي حتى تنتهي

وظيفة شهادته لتنتقل للنبي بعده. ها هو نبي الله عيسى (ع) يؤكد هذه الحقيقة بقوله في كتاب الله تعالى: (وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا

دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ). (سورة المائدة. آية ١١٧)

استثناء خاص:

لقد خص الله تعالى النبي محمد باستثناء خاص يمثل أحد مقامات حقيقته المحمدية، وهي عدم اختصاص شهادته على أمته فقط، بل شموليتها على جميع الأنبياء، متضمنًا بذلك أقوامهم بداهة، يدل على ذلك قوله تعالى في سورة النساء، آية ٤١: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا). وهذه الشهادة أحد معاني الخاتمية، فرسول الله هو الخاتم على صحيفة أعمال الأنبياء يوم القيامة.

في كتاب المعاد للشيخ عبد الله جوادي آملي، نقرأ تأكيداً على هذه الحقيقة بقوله: "إن الشاهد الوحيد في المحكمة الإلهية، والذي كان مطلعاً على جميع هذه الساحات ولا يزال هو رسول الله (ص)، وقد عدّ القرآن هذا المقام الرفيع أبرز خطوط الكمال لرسول الله (ص)، لأنه عندما يصل الإنسان الكامل إلى هذه المرحلة، حيث لا يكون أي حجاب بينه وبين مبدأ الفيض، لا حجاب ظلماني ولا حجاب نوراني، لا يكون له أي حجاب حتى يحصل مثل هذا الشهود حيث يرى جميع الأمور تحت هيمنة شهوده، فلا يكون له أي ذنب حتى ذنب رؤية الوجود "وجودك ذنب لا يقاس به ذنب"، فلا يرى نفسه حينئذ ليحجب بحجاب الأنانية. (جوادي آملي، ٢٠١٣م. ص ٣٠٧).

مستلزمات الشهادة:

إن الشهادة على أعمال الخلق وظيفية معقدة، لا يوكل بها أي أحد من الناس كما هي عقيدة مدرسة الصحابة، فهي وظيفة لها مستلزمات ومتطلبات؛ لا يمكن أن تتوفر في عامة الناس. وعليه، فإن أي أحد من الناس لا يمكن له أن يكون شاهداً، بل جماعة خاصة، وذلك لأسباب، أهمها:

أولاً / أن الشهادة لا تكون على ظاهر الأعمال فقط:

لكل شيء في هذا الوجود وجهان، ظاهري وباطني، ومن ذلك أعمال الإنسان، فالظاهر منها ما كان عمل الجوارح، كالصلاة والصيام والحج وغير ذلك، أما الباطن منها فهو من عمل الجوانح، من قبيل الشك واليقين والإخلاص، وهو الوجه الحقيقي

للعمل، بحيث يكون محور ثواب الإنسان وعقابه. يقول تعالى: (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ). (سورة البقرة. آية ٢٥٥)

لذلك، فإن وظيفة الشهداء على أعمال الخلق تستلزم قدرة الوقوف على باطن الأعمال، كقدرة الوقوف على ظاهرها، وهذا يشير إلى حقيقة أن يكون الشهداء على الأعمال عالمين بالغيب، ومنه حقيقة البواعث الدافعة لكل عمل، فقد ينفق زيد من الناس أمواله فلا يقبلها الله منه، ليقبل من عمرٍ قليل ما أنفق، لا لشيء؛ إلا لعلمه بما تخفي الصدور من نوايا.

يشير الله تعالى لعلم الشهداء بالغيب في قوله على لسان النبي عيسى؛ مخاطبا قومه: (وَأُتْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ). (سورة آل عمران: الآية ٤٩)

ثانيا / أن لا تكون الشهادة قابلة للخطأ والسهو والاشتباه:

من شروط الشهادة على الأعمال أن تكون مطابقة للواقع، أو فلن تكون لها قيمة عند الله. وهذا يعني أن الشاهد المؤتمن منزّه عن الشك والهوى وكل ما من شأنه جرح شهادته، ففيها يتعلق مصير من يشهد عليه، فإما نعيم مقيم، وأما عذاب أبدي.

يعبر الإمام الصادق (ع) عن أهمية نزاهة الشاهد بقوله لأحد أصحابه: "أفترى أن من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع تمر؛ يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية؟". (العياشي، ١٣٨٠ق، ج ١. ص ٦٣).

شبهات وردود

الشبهة الأولى / شهادة رسول الله على من سبقه من الأمم:

هناك من يرفض حقيقة شهادة رسول الله صلى الله عليه وآله على من سبقه من الأمم في حال سلم بإمكانية شهادته على أعمال أمته، كونه آخر الأنبياء وجوداً في الترتيب الزمني.

والواقع أن رسول الله آخر الأنبياء في وجوده المادي، لكنه أول الخلق في عالم الأرواح، فقد ورد عن جابر بن عبد الله قوله: "قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله: أول ما خلق الله تعالى ما هو؟ فقال: نور نبيك يا جابر، خلقه الله ثم خلق منه كل خير". (المجلسي، ١٤٠٣ق، ج ٢٥، ص ٢٢).

إن من حقيقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المحمدية أنه الصادر الأول في قوس النزول والآخر في قوس الصعود. ولأن الشهادة على الأعمال ليست بالشهادة الملكية، بل الملكية كما تقدم، فإن ذلك لا يتنافى مع كون رسول الله آخر الأنبياء بعثة. لقد أرى الله سبحانه وتعالى نبيه إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، وكذلك كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله، بحيث انكشفت له عوالم الغيب والشهادة، فقد ورد عن ثابت بن دينار أنه قال: "سألت زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام عن الله جل جلاله هل يوصف بمكان؟ فقال تعالى الله عن ذلك. قلت فلم أسرى بنبيه محمد صلى الله عليه وآله إلى السماء؟ قال ليريه ملكوت السماء وما فيها من عجائب صنعته وبدائع خلقه. قلت: فقول الله عز وجل ثم دنا فتدنى فكان قاب قوسين أو أدنى؟ قال: ذاك رسول الله صلى الله عليه وآله؛ دنا من حجب النور فرأى ملكوت السماوات، ثم تدلى صلى الله عليه وآله وسلم فنظر من تحته إلى ملكوت الأرض حتى ظن أنه في القرب من الأرض كقاب قوسين أو أدنى". (الصدوق، ١٤١٧ق، ص ٢١٤).

الشبهة الثانية/ الحاجة للوقت؛ للوقوف على الأعمال مجتمعة:

يتصور البعض حاجة الرسول للوقت الذي يعرض فيه عمل الواحد، فضلاً عن المليارات من البشر الموجودين في أماكن متفرقة في مختلف أنحاء العالم، وهذه شبهة مردود عليها. ذاك أن رؤية الملكوت المشار لها في القرآن الكريم وروايات أهل البيت رؤية معنوية متجردة من عالم المادة، ولأنه لا بعد للزمان والمكان في عالم الأرواح، فإن رؤية الرسول عليه الصلاة والسلام لا تخضع للزمان والمكان.

لتقريب الفكرة، نعلم أن الرؤى والأحلام حين تحصل، فإنها في عالم المثال تحصل، حين تتجرد الروح من ثقل البدن المادي فتعرج متخلفة لذلك العالم، ورغم أن مدة الحلم -كما يؤكد العلم الحديث- لا تتجاوز الدقيقة، إلا أننا نرى أن بعض تفاصيل الأحلام تستغرق مراحل زمنية مختلفة تتراوح بين عدة دقائق إلى سنوات طويلة.

يذكر علماءنا الأجلاء هذه الحقيقة في تفسير آية عرض الكتاب يوم الحساب، فهو لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وهذا ما يتأكد منه الإنسان دون الحاجة لوقت يراجع فيه تفاصيل الكتاب. قال تعالى: (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا). (سورة الكهف: آية ٤٩).

إننا حين نفهم كون الرؤية ملكوتية متجردة من بعدي الزمان والمكان، سنفهم كيف تستمر مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته، فالموت ليس عدما، والأرواح لا تفنى، بل تنتقل كما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من دار إلى دار، أي من نشأة إلى نشأة أخرى، يتجاوز فيها حجب الزمان والمكان.

ومن هنا، نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله مات، لكنه لم يعدم، بل انفتح على عوالم أقوى وأوسع من هذه النشأة، وهذا ما نقرأه في قوله تعالى؛ واصفا الانسان بعد الموت: (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ). (سورة ق. آية ٢٢).

الشبهة الثالثة/ خطأ إثبات ما نفاه النبي محمد صلى الله عليه وآله عن نفسه:

القائلون بهذه الشبهة ينكرون علم رسول الله صلى الله عليه وآله بالغيب، الأمر الذي نفاه الله سبحانه وتعالى عنه بقوله: (وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ). (سورة التوبة. آية ١٠١).

حين نراجع تفاسير مدرسة أهل السنة نجد إصراراً على إنكار علم رسول الله صلى الله عليه وآله بحقيقة المنافقين والأعراب، يبررون لذلك بأنه شكل من أشكال اللطف بقلب رسول الله تارة، وبتفنن المنافقين في إخفاء حقيقة ما يضمرون تارة أخرى. نقرأ ذلك في التفسير الميسر، وتفسير الوسيط للطنطاوي وغيرهم، معتمدين في ذلك على بعض المرويات التي لا تتفق مع القرآن الكريم.

إن مما يؤسف له في الاستشهاد بآيات القرآن الكريم هو النظر لما يوافق الرأي منها، بمنأى عن آيات كثيرة قد تبدو مخالفة. لذلك، أوصى أئمة أهل البيت عليهم السلام بعرض الروايات على كتاب الله تعالى وليس على آية أو بعض آيات منه. وإن مما لا يختلف عليه؛ تنوع القرآن الكريم بين الخاص والعام، والمطلق والمقيد، وكذلك المحكم والمتشابه، وفهمه لذلك يحتاج القدرة على التمييز، الأمر الذي لا يتهيأ لعوام الناس، الذين لا يتجاوز فهمهم في أبعد مداه ظاهر القرآن فقط.

فيما يتعلق بشبهة علم رسول الله بالغيب، نحن لا ننكر استئثار الله تعالى ببعض الغيب لنفسه، وهو ما يطلق عليه بالغيب المستأثر، وهو الغيب الذي لا يمكن لأحد من البشر أن يطلع عليه، ذاك أن علم الله مطلق والإنسان محدود، ولا يمكن للمحدود أن يحيط بالمطلق.

إلا أنه تعالى قد أذن لبعض خلقه بمعرفة ما أراد لهم معرفته، فأوحاه لهم. يقول تعالى: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ). (سورة الشورى. آية ٥٢).

ثم إنه تعالى إذا أراد أن يثبت شيئاً لخلقهِ على أي مستوى وبأي درجة، فإنه يبدأ بإثباته لنفسه، نافياً له عنهم في المقام الأول، قبل أن يعود ويثبتهُ لهم بإذنه سبحانه وتعالى. لذا، نجده - مثلاً - يثبت لنفسه هو فعل توفي الأنفس، ثم يعود ويثبتها للملائكة في مقام آخر. يقول تعالى في الآية ٤٢ من سورة الزمر: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا)، ثم يقول: (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ). (سورة النحل. آية ٣٢).

وفي عنوان آخر، يثبت الله لنفسه -وحده- صفة الولاية حين يقول تعالى في الآية ٢٥٧ من سورة البقرة: (اَللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمٰتِ اِلَى النُّوْرِ) ثم يعود ويثبتها له ولرسوله وللمؤمنين. يقول عز من قائل في الآية ٥٥ من سورة المائدة: (اِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَرَسُوْلُهُ وَالَّذِيْنَ اٰمَنُوْا الَّذِيْنَ يَّقِيْمُوْنَ الصَّلٰةَ وَيُؤْتُوْنَ الزَّكٰةَ وَهُمْ رَاكِعُوْنَ).

وفي المجمل، يؤكد الله تعالى أن أحدا لا يمكنه معرفة الغيب إلا بإذنه سبحانه وتعالى، وهذا ما خص ببعضه بعض أنبيائه. يقول تعالى في سورة الجن. في الآيتين ٢٦، ٢٧: (عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ ۚ أَحَدًا * اِلَّا مَن اَرْتَضٰى مِّن رَّسُوْلٍ ۚ فَاِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا).

في شرح هذه الآية، يقول القرطبي في تفسيره: "لما تمدّح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم". (القرطبي، ١٩٦٧م، ج ١٩، ص ٢٨).

وضيف السيد كمال الحيدري على المعنى قائلا: "الله استثنى من هذا النفي من ارتضاه ليطلعه على بعض الغيب، أي على غيب أراد الله إظهاره من الوحي، فإنه من غيب الله تعالى، وكذلك ما أراد الله أن يؤيد به رسوله (ص) من إخبار بما سيحدث أو اطلاع على ضمائر بعض الناس". (الحيدري، ١٤٣٣ق، ص ٢٥٩).

عموم وخصوص:

بعد أن تبين اختصاص رسول الله صلى الله عليه وآله بمقام الشهادة على الشهداء، من البشر، نحتاج هنا أن نبين هوية فئة من الشهداء الذين ورد تقسيمهم في الآية ٦٩ من سورة الزمر السابق ذكرها، وفيها يقول تعالى: "وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ".

الآية تشير لفئة من الشهداء تغاير فئة النبيين، يرى علماؤنا الأجلاء أنها -وبالتعاضد مع آيات أخرى، فضلا عن روايات أهل البيت عليهم السلام- تثبت مقام الشهادة لهم، لكونها ليست من اختصاصات مقام النبوة. وفيما يلي نستعرض أهم الآيات ذات الصلة على سبيل المثال لا الحصر.

أولا / آية الأمة الوسط:

قال تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا). (سورة البقرة. آية ١٤٣).

حين نمر على تفاسير مدرسة أهل السنة والجماعة، نجد فيها تباينا واضحا في تفسير معنى الأمة الوسط، فمن قائل بأن الوسطية هي ما بين الإفراط والتفريط، ومن مشير لاتجاهات تغليب الروح على الجسد والعكس، وغير ذلك كثير مما لم يكن الأمر بحاجة لكثير جهد لبلوغه، فقد أوضح القرآن الكريم الإجابة في نفس الآية بقوله: (وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا).

سئل الإمام الصادق عليه السلام عن معنى الأمة الوسط في غير مرة، فأشار إلى أن أهل البيت هم الأمة الوسط، فعن علي بن محمد، عن سهل بن زياد، عن يعقوب بن يزيد، عن زياد القندي، عن سماعة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) قال: نزلت في أمة محمد صلى الله عليه وآله خاصة، في كل قرن منهم إمام منا شاهد عليهم ومحمد صلى الله عليه وآله شاهد علينا. (الكليني، ١٣٨٨ق، ج ١، ص ١٩٠).

وفي نفس المصدر ورد عن الحسين بن محمد، عن معلى بن محمد، عن الحسن بن علي الوشاء، عن أحمد بن عائذ، عن عمر بن أذينة، عن بريد العجلي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام، عن قول الله عز وجل: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس" قال: نحن الأمة الوسطى ونحن شهداء الله على خلقه وحججه في أرضه".

إذن الأمة الوسط هم ثلة قادرة على الوقوف على حقيقة الأعمال. ليست جميع الأمة ولا واحد منها فقط، وهم في عقيدتنا أهل البيت عليهم السلام؛ يشهدون على أعمال الخلق، وهذا يعني أنهم مطلعون بأمر الله على حقيقة هذه الأعمال. ولذا، فإن علمهم علم لدني من علم الله سبحانه وتعالى، بالمقدار الذي يريده لهم.

عن الإمام الكاظم عليه السلام، لما سأله رجل من أهل فارس: أتعلمون الغيب؟ قال ييسط لنا العلم فنعلم، ويقبض عنا فلا نعلم، وقال: سر الله عز وجل أسره إلى جبرئيل عليه السلام، وأسره جبرئيل إلى محمد صلى الله عليه وآله، وأسره محمد إلى من شاء الله". (الريشهري، ١٤١٧ق، ج ٣، ٢٣٢٦).

هذه الرواية تبين لنا أن علم أهل البيت ليس علما مكتسبا، بل هو علم لدني؛ يفيض به الله تعالى على القلب والروح لينفتحوا بالعلم الباطني على عالم الغيب ويعاينوا الحقيقة أو آثارها عيانا، وذلك بواسطة روح القدس الذي أيد الله بها أنبياءه وأوليائه، وهي في قوتها على درجات تكون بدرجة من تؤيد نفسه.

ورد عن أبي حمزة الثمالي أنه قال: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن العلم، أهو علم يتعلمه العالم من أفواه الرجال، أم في الكتاب عندهم تقرؤونه فتعلمون منه؟ قال الأمر أعظم من ذلك وأوجب. أما سمعت قول الله عز وجل "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ"، ثم قال أي شيء يقول أصحابكم في هذه الآية؟ أيقرون أنه كان في حال ما يدري ما الكتاب ولا الإيمان؟ فقلت لا أدري - جعلت فداك - ما يقولون، فقال لي: بلى قد كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، حتى بعث الله تعالى الروح التي ذكر في الكتاب، فلما أوحاها إليه علم بها العلم والفهم، وهي الروح التي يعطيها الله تعالى من شاء، فإذا أعطاهها عبدا علمه الفهم". (الكليني، محمد يعقوب، أصول الكافي، ج ١، ص ٢٧٤).

ثانيا / آية الأعراف:

قال تعالى: (وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ۖ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ). (سورة الأعراف. آية ٤٦).

اختلف المفسرون في هوية أصحاب الأعراف وتعددت الآراء في ذلك حتى بلغت أربعة عشر قولاً، أشهرها ثلاثة، وهي: (الطباطبائي، ١٤١٧ق، ج ٨، ص ١٢٦، ١٢٩)، (الرازي، ١٤٠١ق، ج ١٤، ص ٩٠)، (الرازي، أبو الفتوح، روض الجنان وروح الجنان، ج ٨، ص ٢٠٤).

١- أنهم مجموعة من المقربين عند الله، كالأنبياء والأئمة والشهداء على أعمال الناس.

٢- أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم.

٣- أنهم ملائكة واقفون على الأعراف يعرفون كلاً بسيماهم.

وفي حين يقول أغلب علماء ومفسري مدرسة أهل السنة والجماعة القول الثاني، يقول أكثر علماء الشيعة بأن أهل الأعراف هم الأنبياء والأئمة الطاهرون عليهم السلام، وهو ما يؤكدته الكثير من الروايات الواردة في العديد من المصادر، كما في مصادر الحديث الشيعية، مثل كتاب بصائر الدرجات للصفار، والكافي للكليني، ومعاني الأخبار للصدوق، ومسار الشيعة للشيخ المفيد، حسب موقع ويكي شيعية.

والواقع أن تحديد هوية هؤلاء الرجال ليس بالأمر الصعب، فقد أثبت الله وظيفة الشهادة للأنبياء، كما أثبتها للملائكة الذين لا يصدق عليهم وصف الرجولة والأنوثة. لذا، فإن الشهداء في الآية هم فئة أخرى لا يمكن لها أن تكون أي قوم صالحين، فقهاء وعلماء.

لقد أشرنا في موضوع مستلزمات الشهادة أنها لا تكون على ظاهر الأعمال فقط، بل بواطنها، وهذا ما تؤكدته الآية هنا بالإشارة إلى معرفة رجال الأعراف (كَلَّا بِسِيمَاهُمْ)، والمعرفة هنا يقصد بها الوقوف على حقيقة أعمال أصحاب الأعراف.

يذكر مفسرو مدرسة الصحابة أن السيماء المذكورة في الآية -وتعني العلامة- تتمثل في بياض الوجوه وسوادها، وهذه إنما سيماء ظاهرية لا يعول عليها وحدها، فقد عرف الخوارج بسواد الجباه من أثر السجود، إلا أن ذلك لم يشفع لهم، حين حاربوا علياً عليه السلام وهو روح الصلاة.

إن السيماء في تفاسير علمائنا وإن تضمنت ذات المعنى، إلا أن ثمة تفصيل عن كونها علامات لا ينكشف عليها إلا المفوضون بالاطلاع على بواطن أعمال العباد، حيث أن مصير من يشهدون عليهم بيدهم. ولهذا، لا يمكن أن يسلم الله مصائر خلقه لغير القادرين على رؤية حقائق الأمور.

يقول العلامة السيد الطباطبائي في كتابه الميزان، مفسرا آية الأعراف، ومشيرا لرجال الأعراف: "أن ما يصفهم الله به تعالى في الآيات من الأوصاف ويذكرهم من الشؤون تأبى إلا أن يكون القائمون به من أهل المنزل والمكانة، وأصحاب القرب والزلفى.. إلى أن يقول عن رجال الأعراف: أنهم مشرفون على أهل الجمع عامة، ومطلعون على أصحاب الجنة وأصحاب النار. يعرفون كل إنسان منهم بسيماه الخاص به ويحيطون بخصوصيات نفوسهم وتفاصيل أعمالهم، ولا ريب أن ذلك منزلة رفيعة يختصون بها من بين الناس، وليست مشاهدة جميع الناس يوم القيامة وخاصة بعد دخول الجنة والنار أمرا عاما موجودا عند الجميع". (الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، ج ٨، ص ١٤٥).

وقد سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبَسِيلٌ مَّقِيمٌ) فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله المتوسم، وأنا من بعده والأئمة من ذريتي المتوسمون". (الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، ج ١، ص ٢١٩).

وعن يحيى بن إبراهيم؛ في نفس المصدر قال: حدثني أسباط بن سالم قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدخل عليه رجل من أهل هيت، فقال له: أصلحك الله ما تقول في قول الله عز وجل: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ"؟ قال: نحن المتوسمون والسبيل فينا مقيم.

دعوة للتأمل:

في الفقه، نقرأ أن أداء الشهادة فرع تحملها، فمن لا يتحمل الشهادة في ظرف وقوع الفعل؛ لا يمكنه أن يشهد، مع التأكيد أن الشهادة هنا ليست بالشهادة المادية، بل ما وراءها، وهي ما يعبر عنه بالرؤية المعنوية أو الملكوتية، وقد بينا أن هذه الرؤية لا تتحقق لعامة الناس للأسباب آنفة الذكر.

وإن من الجدير بتأمله هو عطف الله سبحانه وتعالى رؤية هذه الفئة على رؤيته هو بحيث تكون مساوية لها. يقول تعالى في الآية ١٠٥ من سورة التوبة: (وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

الرؤية في الآية واحدة، والرايون ثلاثة؛ الله، ورسوله، والمؤمنون. وكان الله تعالى قادرا على أن يجعل لرسوله رؤية كما ويجعل للمؤمنين رؤية، إلا أن في عطف رؤية الرسول والمؤمنين على رؤيته هو سبحانه إشارة إلى أن هذه الرؤية لا تعم مطلق المؤمنين، بل هي رؤية خاصة بطبقة خاصة.

ولقد عين القرآن الكريم هذه الطبقة الخاصة بقوله تعالى: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ). (سورة المائدة. آية ٥٥).

إذن، علي عليه السلام وذريته هم المؤمنون في القرآن، تؤكد ذلك رواياتهم، والتي منها ما ورد عن عبد الله بن أبان الزيات، وكان مكيًا عند الرضا عليه السلام حيث قال: قلت للرضا عليه السلام: ادع الله لي ولأهل بيتي فقال: أو لست أفعل؟ والله إن أعمالكم لتعرض علي في كل يوم وليلة، قال: فاستعظمت ذلك، فقال لي: أما تقرأ كتاب الله عز وجل: (وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)؟ قال: هو والله علي بن أبي طالب عليه السلام. (العتاردي، عزيز الله، مسند الإمام الرضا (ع)، ج ١، ص ٣٣٩).

وعن النضر بن سويد، عن يحيى الحلبي، عن عبد الحميد الطائي، عن يعقوب بن شعيب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: (وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)، قال: هم الأئمة. (الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، ج ١، ص ٢٢٠).

نعم، إن أعمالنا تعرض على رسول الله وعلى أهل بيته صلوات الله عليهم. وقد ورد في الروايات أن ذلك يحصل كل خميس، فعن معلى بن خنيس عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: (وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)

قال: هو رسول الله صلى الله عليه وآله والائمة عليهم السلام، تعرض عليهم أعمال العباد كل خميس". (المجلسي، ١٤٠٣ق، ج ٢٣، ص ٣٥٤).

وجاء أنها تعرض عليه كل صباح، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: إن أعمال العباد تعرض على رسول الله صلى الله عليه وآله كل صباح، أبرارها وفجارها، فاحذروا، فليستحي أحدكم أن يعرض على نبيه العمل القبيح. (الريشهري، ١٤١٧ق، ج ٣، ص ٢١٣٤).

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعيننا على أنفسنا لنحفظها من أن تتورط بما يؤذي قلب رسول الله صلى الله عليه وآله. هذا النبي العظيم الذي جاهد لينال أقرب منزلة المقربين، من أجل أن يستنقذنا من الضلال ويهديننا إلى طريق الحق. فما أجدر بنا بعد كل ما تقدم أن نشعر بالفخر لانتمائنا لأمة هذا النبي العظيم.

الله أدخلنا في كل خير أدخلت فيه محمدا وآل محمد، وأخرجنا من كل سوء أخرجت منه محمدا وآل محمد بحق محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين.

نتائج البحث:

نتائج بحثنا ستكون كالتالي:

١- إن لرسول الله صلى الله عليه وآله مقامات عالية أثبتتها الله سبحانه وتعالى في كتابه المجيد، وأيدها روايات أهل البيت عليهم السلام.

٢- إن استيعاب الحقيقة المحمدية يحتاج تهذيبا للنفس، وهذا لا يتحقق إلا بمعرفة الله سبحانه وتعالى، وبقدر معرفته تزيد في النفس سعتها.

٣- إن مفهوم الشهادة في القرآن لا يعني الموت في الحرب، بل هو الوقوف على أعمال الخلق للشهادة لهم أو عليهم.

٤- أن الله غني عن شهادة الشاهدين، لكنه خول بعض خلقه للشهادة على العباد؛ ليقفهم على واقعهم، فضلا عن تكريمه للشهداء أنفسهم.

- ٥- إن الشهادة قسمان، ملكية وملكوتية.
- ٦- نماذج الشهداء في القرآن لم تقتصر على البشر، بل شملت الجمادات والملائكة.
- ٧- من البشر؛ لم يكن الأنبياء والرسل وحدهم هم الشهداء، بل هناك فئة خاصة عبر عنها القرآن بتعابير اختلفت في فهمها آراء العلماء والمفسرين في مختلف المذاهب الإسلامية.
- ٨- إن مصطلح (أئمة الدين) في القرآن يشمل الأنبياء، والأوصياء، والعلماء، والفقهاء.
- ٩- أن الوظائف قسمان، ظاهرية وباطنية، وأن الذهن ينصرف للظاهر منها غالباً.
- ١٠- إن من وظائف أئمة الدين الظاهرية هداية الناس، والقضاء بالعدل، والتبليغ عن الله سبحانه وتعالى.
- ١١- إن من وظائفهم الباطنية الشفاعة.
- ١٢- إن أسمى مراتب الشفاعة وأعلاها مرتبة رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي ما عبر عنه في القرآن الكريم بالمقام المحمود.
- ١٣- إن لرسول الله صلى الله عليه وآله في الشهادة استثناء خاص، بحيث جعله الله الشاهد على الشهداء.
- ١٤- إن درجة الشفاعة ترتفع بالوقوف على حقائق الأعمال.
- ١٥- إن العلم بالغيب من مستلزمات الشهادة.
- ١٦- إن للأعمال وجهان، ظاهري وباطني.
- ١٧- أن رؤية الأعمال لا تكون لأي أحد، لخطورة نتائجها.
- ١٨- إن أهل البيت عليهم السلام من الشهداء.
- ١٩- إن أهل البيت هم الأمة الوسط، وهم رجال الأعراف.
- ٢٠- إن أعمالنا تعرض عليهم، يسعدهم صلاحنا ويسوؤهم ضلالنا.

مصادر المقال:

١. القرآن الكريم.
٢. الإمام السجاد، علي بن الحسين (ع)، الصحيفة السجادية.
٣. الريشهري، محمد بن إسماعيل، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب في الكتاب والسنة والتاريخ، (١٤٢٠ق)، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
٤. القيصري، داود، شرح فصوص الحکم، (١٤٣٢ق)، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
٥. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، (١٤٠٣ق)، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
٦. المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول في شرح أخبار الرسول، (١٤٠٤ق)، طهران، دار الكتب الإسلامية.
٧. السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور، (١٤٢٤ق)، مصر، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية.
٨. المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، (١٤٣٠ق)، بيروت، دار الكتب العلمية.
٩. آملی، عبد الله جوادي، المعاد والقيامة في القرآن، (١٤١٤ق)، بيروت، دار الصفوة.
١٠. العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، (١٣٨٠ق)، طهران، المكتبة العلمية الإسلامية.
١١. الصدوق، محمد بن علي، الأمالي، (١٤١٧ق)، قم، مؤسسة البعثة.
١٢. الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، (١٣٨٨ق)، طهران، دار الكتب الإسلامية.
١٣. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، (١٤١٧ق)، بيروت، شركة العلمي للمطبوعات.
١٤. الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، (١٤٠١ق)، بيروت، دار الفكر.
١٥. الرازي، أبو الفتوح جمال الدين الخزاعي، روض الجنان وروح الجنان، (١٤١٩ق)، قم، مؤسسة البحوث الإسلامية.
١٦. موقع ويكي شيعية، الأعراف في يوم القيامة.

١٧. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، (١٩٦٧م)، بيروت، دار إحياء التراث

العربي.

١٨. الحيدري، كمال، علم الإمام، (١٤٣٣ق)، قم، دار فراق.

١٩. العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام الرضا، (١٤٠٦)، قم، مؤسسة طبع ونشر آستان قدس الرضوي.

٢٠. محاضرات وبحوث متفرقة على الشبكة. منها:

أ. مقامات الرسول الأعظم. الشيخ الدكتور علي المياحي.

ب. بحث خارج نظرية الإنسان الكامل. السيد كمال الحيدري.

ت. بحث أدوار الإمام الباطنية. السيد كمال الحيدري.

ث. مقامات النبي في التجليات الإلهية. الشيخ محمد سند.

ج. وغيرها.